

مجلة جامعة الشارقة

مجلة علمية محكمة

للعلم
الشرعية
والدراسات
الإسلامية



المجلد 19، العدد 3
محرم 1444 هـ / سبتمبر 2022م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات 2616-7166

الفهم الصحيح للقرآن بين ضوابط منجية ومزالق مهلكة.

صالح سعود السعود

كلية التربية - جامعة حائل

حائل - المملكة العربية السعودية

تاريخ القبول: 2020-12-28

تاريخ الاستلام: 2020-02-17

ملخص البحث:

الهدف: محاولة الوصول إلى الفهم الدقيق للقرآن، وتطبيقه واقعاً عملياً.

المنهج: التحليلي الاستقرائي الوصفي.

أهم النتائج: اهتمام القرآن الكريم البالغ بالحديث عن عادات البشر، وعن السنن والقوانين التي تحكم سلوكهم، الفهم الدقيق لمعالجة القرآن لها، التطبيق الدقيق لذلك في الحياة.

أهم التوصيات: توظيف السنن والإفادة منها، وحسن التعامل معها، وإلا وقع الإنسان في المزالق، كذلك دعوة ملحة في أن يكون هذا الباب الخصب من أبواب الدراسات القرآنية محطاً لأنظار العلماء وأقلام الباحثين.

الكلمات الدالة: مفهوم، علاقة، تطبيق، منهج، قرآن.

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن كتاباً من الكتب السماوية لم يلق من العناية والاهتمام مثلما لقي القرآن، وما ذلك إلا لوعده الله تعالى بحفظه: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾] [الحجر:]، ولم يكن هذا حفظاً مجرداً، بل تبعه معرفة وتشابهه، ونزوله، وإعجازه، . . . ، ووقوفاً عند نتائجه، وأدلته وبيانه، لما نزل قوله تعالى: [الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ] [الأنعام: 82]، قالوا: يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه قال -صلى الله عليه وسلم-: "إن الظلم هنا ليس الذي تعنون، إنما هو الوارد في قول العبد الصالح: [يَبْتَغِي لَأَظْلَمَ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾] [لقمان: 13] ⁽¹⁾، ولم يكن أصحاب النبي ﷺ يقصرون هذا المصدر على جانب التشريع، بل كان الفهم القرآني يغزو كل جوانب الدين، انتشر الضياء، حتى أتى على المسلمين حين من الدهر، تبدلت المفاهيم، والمعايير، فأصبحت نظرهم إلى القرآن نظرة جامدة هامدة، لا تبني جيلاً، ولا حضارة، ولا همة.

فهم أعداء الإسلام مكمن السر، ومصدر القوة لدى المسلمين، القرآن، فسخروا ما يملكون، للحيلولة بين المسلمين وبينه، وتتابعت جهودهم في صور متعددة، وألوان متباينة حتى صرفوا المسلمين عن القرآن، وفهمه، ساعدهم على ذلك قبول كثير من المسلمين، فنجحوا في ذلك حتى أصبح الاهتمام بالقرآن من المضمون إلى الشكل، ومن الفهم والتوظيف إلى العناية بتجويده وقراءته، ومن إقامة حدوده إلى إحسان حروفه فحسب، من هنا وجب على المسلمين أن يعيدوا النظر في علاقتهم بالقرآن؛ لذا كان هذا البحث؛ إطلالة على أسس الفهم، وقواعد الضبط العقلي التي تعين على حسن الإدراك، وحسن التوظيف على قدر الطاقة البشرية، وتحذيراً من المزالق المهلكة التي يضيع معها الجهد، والطاقة، وسعيها إلى نقل المعرفة من دائرة الفكر والعقل إلى ميدان التطبيق الواعي، والتوظيف السليم.

حدود البحث: البحث بعض الآيات القرآنية التي تحث على الفهم والتدبر.

سبب اختيار الموضوع:

- ضعف صلة الناس بالقرآن.
- تقديم بعض القوانين الوضعية على القوانين الإلهية

(1) رواه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله: (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله) (لقمان: 12)، ج3، ص 1226، رقم: 3181، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: صدق الإيمان وإخلاصه، ج1، ص 114، رقم: 197.

مشكلة البحث:

س: هل الفهم القرآني فريضة وضرورة؟

س: ما ضوابط فهم الصحيح للقرآن؟

س: ما العقبات التي تقف في طريق فهم القرآن الكريم؟

س: ما الأمور التي تعين على الفهم؟

أهمية الموضوع: تجلّى في:

- الحاجة الماسة لدراسة مثل هذه المواضيع خاصة في هذا العصر.
- أهمية المقارنة بين المنجيات والمهلكات.
- التعلق الوثيق بالقرآن.

أهداف البحث:

- محاولة الوصول إلى الفهم الدقيق للقرآن.
- إعادة الناس للنظرة الصحيحة للقرآن.
- التطبيق الواقعي العملي في الحياة.

الدراسات السابقة: كل الدراسات التي اطلعت عليها، إما يكون الحديث فيها عن فهم القرآن عامة، يعني: لهداية الناس وليس كمنهج بحثي علمي، أو الفهم في منظور جزئيات معينة سلوكية أو عقديّة أو . . .

وهذه الدراسة فيها الجمع بين كون القرآن هداية ودستور حياة وبين فهمه وتطبيقه في الحياة وفق المنهجية التي أرادها الله عز وجل.

إجراءات ومنهجية البحث: سلكت في المنهجية المنهج (التحليلي الاستقرائي الوصفي)، على النحو التالي:

- كتابة الآيات بالرسم العثماني، وبين قوسين مزخرفين ﴿﴾.
- عزو الآيات إلى سورها في المتن، وجعلتها بين قوسين [] .

- تخريج الأحاديث من مصادرها، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت به، وإن كان غير ذلك ذكرت مصدره في السنن أو المسانيد أو المصنفات وحكمت عليه .
 - جعلت الأحاديث بين علامتي التنصيص: " " .
 - التعريف بالألفاظ والأماكن التي تحتاج لذلك متى ما وُجدت .
 - الحواشي جعلت الأرقام بين قوسين () .
 - مراعاة الأمانة العلمية في النقل .
- هذا وقد قسمت هذا البحث بعد المقدمة إلى أربعة مباحث وخاتمة،
- المبحث الأول: الفهم القرآني فريضة وضرورة.
- المبحث الثاني: ضوابط فهم القرآن.
- المبحث الثالث: العقبات التي تقف في طريق فهم القرآن الكريم.
- المبحث الرابع: الأمور التي تعين على الفهم.
- الخاتمة، وفيها ما توصلت إليه من نتائج، وتوصيات.
 - فهرس المراجع والمصادر.
 - فهرس الموضوعات.

المبحث الأول: الفهم القرآني فريضة وضرورة

التمهيد:

قبل الحديث على أن الفهم القرآني فريضة وضرورة، هناك سؤال يتبادر للذهن، ألا وهو: كيف نفهم القرآن؟ ولكي نجيب عن السؤال، هناك أمور سنذكرها، لعلها بلسم شاف في الإجابة:

الأمر الأول: لماذا الحديث عن فهم القرآن؟ الحديث عن فهم القرآن هو أهم حديث ينبغي الحرص عليه لعدة الأمور:

أولاً- لأن القرآن هو الأصل لكل شيء، نزل ليعمل به، ولا يمكن أن يعمل الإنسان بشيء لا يفهمه، ومثل من يقرأ القرآن ولا يفهمه، كمثل: ﴿الْحَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: 5]، أو:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ * والماء فوق ظهورها محمول⁽¹⁾

ثانياً- عدم فهم القرآن، معناه زوال العلم وارتفاعه، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فشخص بصره إلى السماء، ثم قال: "هَذَا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ" فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ؟! فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُفَرِّقَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ: "تَكَلَّتْكَ أُمَّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتَ لِأَعْدُكَ مِنْ فَهْمِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هَذِهِ التُّورَةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟!" قَالَ جُبَيْرٌ: فَلَقِيتُ عَبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، فَلِيتُ: أَلَا تَسْمَعُ إِلَيَّ مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟! فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، قَالَ: صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، إِنْ شِئْتَ لِأَحَدِنْتِكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يَرْفَعُ مِنَ النَّاسِ؛ الْخُشُوعُ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا⁽²⁾. فزوال العلم يكون بذهاب أو عيته وأهله، ويكون بعدم العمل به، فمن لم يعمل بما علم فلا فائدة في علمه، والنبى -صلى الله عليه وسلم- أخبر بأن العلم يرتفع من الناس مع أن أصله موجود.

ثالثاً: الأجر العظيم والثواب الجزيل في فهم القرآن وتدبره، فعن عتبة بن عامر رضي الله عنه قال خرج علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونحن في الصفة فقال: "أَيْكُمْ يَحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ إِلَى بَطْحَانَ أَوْ الْعَقِيقِ، فَيَأْخُذَ نَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ زَهْرًا وَيُنِ بَعِيرٍ إِيَّاهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا يَقْطَعُ رَحِمًا؟" قالوا: كلنا يا رسول الله، قال: "فَلَا تَغْدُوْا أَحَدَكُمْ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَيَتَعَلَّمُ آيَاتَيْنِ مِنَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَإِنْ ثَلَاثَ ثَلَاثٍ مِثْلَ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ"⁽³⁾.

وإذا كان تعلم العلم هو أفضل الأعمال وأحبها، وأشرفها وأرفعها، فأعلى درجات العلم هو معرفة كلام الله وفهمه.

رابعاً- فهم القرآن حق فهمه سبب لوجود الألفة، واجتماع القلوب، وزوال الخلاف

(1) البيت: لطرفة بن العبد، وقيل: للمتنبى، وقيل: لعبدالغني النابلسي. ولم أقف عليه.

(2) رواه الترمذي، كتاب: العلم، باب: ما جاء في ذهاب العلم، ج5، ص: 31 رقم: 2653، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. قَالَ الْأَلْبَانِيُّ: صَحِيحٌ."

(3) رواه مسلم، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه، ج1، ص: 552، رقم: 803.

المذموم، عن إبراهيم التيمي قال: خلا عمر رضي الله عنه ذات يوم، فجعل يحدث نفسه؛ كيف تختلف هذه الأمة، ونبياها واحد، وقبلتها واحدة؟ فأرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: كيف تختلف هذه الأمة ونبياها واحد، وقبلتها واحدة، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يا أمير المؤمنين إنا أنزل علينا القرآن فقرآناه، وعلّمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اختلفوا. (1).

خامسا: إن من أعرض عن تعلم القرآن وفهمه، فقد يبتليه الله تعالى بالانشغال عنه والانصراف إلى غيره؛ قال تعالى عن اليهود: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة: 101 - 102]، فاليهود لما جاءهم كتاب الله، تركوه وأعرضوا عنه، ابتلاهم الله جل وعلا بتابع أزدل الكتب وأكذبها وأضرها وهو ما تتلوه الشيطان على ملك سليمان (2).

الأمر الثاني: فهم القرآن وتدبره ليس مقتصرًا على العلماء

بل كل واحد لا بد أن يأخذ حظه من القرآن، بحسب ما يبصره الله له، وبحسب ما معه من الفهم والعلم والإدراك؛ فانه تبارك وتعالى دعا عباده كلهم إلى ذلك، ولم يخص طائفة دون أخرى، ولو كان فهم القرآن وتدبره مقتصرًا على فئة لكان نفعه محصورًا عليهم، ولكان الخطاب في الآية موجهاً إليهم، وهذا معلوم البطلان.

قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه؛ وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله (3). فالوجه الذي لا يعذر أحد بجهالته هو معرفة ما فيه من الأحكام الواضحة، والمواعظ الجليلة المؤثرة، والحجج القوية البينة، والمعاني الكلية التي دلت عليها الآيات... (4)، إلى غير ذلك من الأمور الواضحة الجليلة.

فمثل هذا متيسر لكثير من الناس بحمد الله، لكنه يحتاج إلى شيء من التأمل، والنظر في بعض التفاسير النافعة المختصرة.

(1) انظر: الموافقات، للشاطبي، ج: 4، ص: 147 - 148.

(2) انظر: القواعد الحسان لابن سعدي، ج: 1، ص: 96، القاعدة الرابعة والثلاثون.

(3) رواه ابن جرير في تفسيره، ج: 1، ص: 57.

(4) انظر: الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي، ج: 3، ص: 105.

الأمر الثالث: أن الوقوع في الخطأ عند تدبر القرآن وفهمه وارد

قد يفهم الإنسان من الكلام معنى عامًا، ويكون المقصود ما هو أخص، وقد يفهم منه معنى آخر غير المراد منه، وهذا قد وقع للصحابة رضي الله عنهم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ" فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الإنشقاق: 8]، فَقَالَ: "لَيْسَ ذَلِكَ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرَضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ"⁽¹⁾. فتمسكت عائشة رضي الله عنها بظاهر لفظ الحساب؛ لأنه يتناول القليل والكثير، فبين لها النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منة الله عليه في سترها عليه في الدنيا وفي عفوها عنها في الآخرة⁽²⁾. والأمثلة على ذلك كثيرة.

وقد يكون الخطأ بسبب تقصير في النظر والتأمل، ومعرفة ما يجب معرفته، أو بسبب هوى في النفس؛ أو اعتقاد، ثم يطلب ما يدل عليه من القرآن، فيفهم الآية على غير المقصود منها؛ لتوافق ما في نفسه واعتقاده، والواجب على المسلم أن يكون همه طلب معرفة مراد الله تعالى ومقصوده، فالفهم الصحيح (يمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمودة الخلق، وترك التقوى)⁽³⁾.

ثم إن الحديث عن فهم القرآن وتدبره ليس معناه أن المسلم يجعل من نفسه مفسرًا، يتكلم في معنى كل آية، دون نظر في تفاسير أهل العلم، وفهمها؛ لأن التفسير معناه بيان مراد الله، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار"⁽⁴⁾، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "أي أرض تظلني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم؟"⁽⁵⁾، هذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف تدل على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، أو أن يقولوا فيه برأيهم، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا

(1) رواه البخاري، كتاب: العلم، باب: من سمع شيئاً فلم يفهمه فراجع فيه حتى يعرفه، ج1، ص: 32، رقم: 103، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ج4، ص: 2204 رقم: 2876.

(2) انظر: فتح الباري، لابن حجر، ج11، ص: 401.

(3) إعلام الموقعين، لابن قيم الجوزية، ج1، ص: 69.

(4) رواه الترمذي، كتاب: تفسير القرآن، باب: ما جاء فيمن يفسر القرآن برأيه، ج5، ص: 199، رقم: 2950 وقال: حديث حسن صحيح. قال الألباني: ضعيف.

(5) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، ج9، ص: 243، وقال: رجاله رجال الصحيح.

حرج عليه⁽¹⁾.

الأمر الرابع: الاختلاف في الفهم والتفسير لا يضر إجمالاً

قد يقع اختلاف في فهم الآية، عندما تجد عددًا من أقوال المفسرين، فلا تدري أي المعاني هو المراد، فتظن أنك لم تفهم المقصود من الآية، وإزالة هذا الإشكال لا بد أن نبين أمرين مهمين:

الأول: الفهم العام للآية لا يضر معه الاختلاف في بعض التفاصيل. فقد تكون فاهمًا للآية في الجملة، لكن لا تفهم معنى هذه الكلمة، أو لا تدري أي المعاني أصح، فهذا لا إشكال فيه، وكيفيك المعنى العام، وبخاصة إذا كانت معرفة المعنى الخاص مما لا يترتب عليه فائدة كبيرة، ومن أمثلة ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه قال: "كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ فِي ظَهْرِهِ أَرْبَعُ رِقَاعٍ، فَقَرَأَ: ﴿وَفَلَكِهِمْ وَأَبْنَا﴾ [عبس: 31] فَقَالَ: هَذِهِ الْفَاكِهَةُ قَدْ عَرَفْنَاهَا، فَمَا الْأَبُّ؟ ثُمَّ قَالَ: مَهْ نُهَيِّنَا عَنْ التَّكْلِيفِ"⁽²⁾.

أما إذا ترتب على فهم المعنى الخاص أمر علمي فلا بد من معرفته، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَضَّ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: 228]، فالمعنى الإجمالي للآية أن المطلقة تعدد بثلاثة قروء، لكن اختلف أهل العلم في القرء ما هو؟ أهو الحيض أو الطهر، فمن كان لديه معرفة بالفقه، وقدرة على الترجيح ينظر في أقوال أهل العلم، ويتعرف على أدلتهم، أو يسأل من يثق في علمه. الثاني: التفرقة بين اختلاف التنوع، واختلاف التضاد. اختلاف التنوع هو أن يكون لفظ الآية محتملاً لجميع المعاني المذكورة، ولا بأس أن تدل على الجميع، كقوله تعالى: ﴿كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ [المدثر: 50 - 51] فبعضهم يقول: القسورة الرامي، وبعضهم: الأسد، فيجوز أن يكون المراد هذا، ويجوز أن يكون المراد هذا.

وأما اختلاف التضاد فهو أن تكون المعاني المذكورة متقابلة، لا يمكن الجمع بينها، بل لا بد من ترجيح أحدها، مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: 17 - 18] ما المراد بالقول في هذه الآية؟ هل كل قول فتكون أل للجنس، أم أن المقصود بالقول هو القرآن فقط، بدلالة أن الله إنما يذكره في أكثر من موضع بهذا اللفظ، كما في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: 68]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: 19].

(1) انظر: مقدمة ابن تيمية في التفسير، ص: 46، ومجموع الفتاوى، ج13، ص: 374.

(2) انظر: فتح الباري، لابن حجر، ج13، ص: 271.

الأمر الخامس: الإعجاز العلمي وفهم المعنى.

يراد بالإعجاز العلمي: الاكتشافات الحديثة في الكون والطب ونحو ذلك، وربط هذه الاكتشافات بدلالات النصوص، وتفسير القرآن بها.

إن المعنى المقصود من كلام الله في كتابه ظاهر بدون حاجة إلى هذه المكتشفات، فقد فهم الصحابة ومن بعدهم كتاب الله حق فهمه، وقاموا به على أكمل وجه، ولم يعرفوا مثل هذه الأمور، لكن الناس انقسموا في الإعجاز العلمي إلى ثلاثة فرق:

الأول: رد ذلك مطلقاً. والثاني: اعتمدوا على هذه الاكتشافات والاختراعات اعتماداً كلياً، وأبطلوا كل ما يخالفها، وجعلوا ذلك دليلاً على إعجاز القرآن. والثالث: التوسط بين القولين، ورأى أن الاكتشافات الحديثة إذا صحت فإنها تعين على فهم بعض الآيات، وترشد إلى المعنى المراد، ويقولون: إن كان ما دل عليه الاكتشافات الحديثة مما لا يخالف ما فسر أهل العلم به كتاب الله، إما لأنه وجد ما يدل عليه من كلامهم، أو أنه يدل على معنى جديد لا يصادم كلامهم، فهو مقبول، وإن كان يخالف ما فسره به السلف فإنه لا يقبل. ومن أمثلة ذلك: قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ حَلَقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: 6]؛ فإن العلم الحديث اكتشف هذه الظلمات، وهي موجودة في كتاب الله⁽¹⁾.

قلت: ما وافق النص القرآن وأصبح حقيقة علمية (قانون علمي) نقله، فالأصل القرآن، ولعل محط الاختلاف هنا هو: أن الحقيقة العلمية تابعة للنص القرآني، أو العكس.

عوداً على ذي بدأ، نقول: إن قضية فهم القرآن، والوقوف على توجيهاته وقضاياها، قضية جوهرية أولية، وليست ثانوية، فهي بحق فريضة قرآنية، وضرورة حياتية؛ فهي فريضة قرآنية للآيات التي ألحت في التأكيد على أهمية فهم القرآن ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرِّانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۗ﴾ [محمد: 24]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ۗ﴾ [المؤمنون: 68]، وغير ذلك من الآيات الكريمة، وهي ضرورة حياتية؛ لأن صلاح الإنسان في معاشه ومعاده وسعادته في الدارين مربوط بفهمه للقرآن الكريم، فإن فهم القرآن الفهم الصحيح، صار - بحق خليفة الله في أرضه، وأهلاً للتكليف وللتنشريف، وإن أخفق، أصبح في دياجير الظلام، ولن يصل إلى مبتغاه، وكان كمن قال: ﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: 43]، فنودي ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۗ﴾، فأصبح من المغرقيين.

(1) أضواء البيان، للشنقيطي، ج3، ص: 124.

المبحث الثاني: ضوابط فهم القرآن الكريم

الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون يدعوهم إلى أن يعودوا إلى سبب عزهم ومجدهم، كتاب ربهم وفهمه، وحتى يصل المسلمون إلى فهم سليم للقرآن الكريم، وإدراك لمراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، هناك عدد من الضوابط إن رعوها حق رعايتها وصلوا إلى الفهم السليم والإدراك الآمن لمحتوى القرآن الكريم، ومن هذه الضوابط:

الضابط الأول: وجوب تعلّم قواعد لغة العرب، أو ما يسمى (معرفة معهود الخطاب القرآني)

وجوب تعلّم لغة العرب، وفهم معاني كلامهم، وطرائقهم، وأساليبهم، فإن القرآن عربي، ونزل وفق أساليبهم، واشتمل على معظم إبداع العرب في كلامهم، فاستخدم التشبيه، وضرب الأمثال، والتقديم لأغراض بيانية، . . . ؛ كقوله تعالى: [ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ] [الدخان: 49] .

ومن لا يعرف معاني ألفاظ الكلمات العربية ومفردات اللغة، لا يعرف المقصود الحقيقي بالإيمان، والعلم، واليقين، والظن، والصوم، والصلاة، . . . ، وسائر كلام العرب الذي نزل به القرآن. وقد وقف ابن عاشور على هذه القاعدة، فقال: (يحق على المفسر أن يتعرف عادات القرآن، من نظم وكلمة) ثم مضى يؤكد على هذه القاعدة من قواعد فهم القرآن الكريم، واستيعاب مراده، فإنه تتبع بنفسه هذا النمط من تعبيرات القرآن، فوجده يمضي على طريقة مفردة، ومن هذه التعبيرات التي حصرها ابن عاشور: (أن كلمة هؤلاء إذا لم يجئ بعدها عطف بيان تبيين المشار إليهم فإنها يراد بها المشركون من أهل مكة، كقوله- تعالى:- [بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ] [الزخرف: 29]، وقوله: فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا يَكْفُرِينَ] [الأنعام: 89]،...⁽¹⁾.

ويرى الطبري: أن اللغة وفهمها شرط لفهم القرآن الكريم، فيقول: (. . .)، وذلك البيان عما في أي القرآن من المعاني التي من قبلها يدخل اللبس على من لم يعان برياضة العلوم العربية، ولم تستحكم معرفته بتصاريح وجوه منطلق الألسن السليقة الطبيعية⁽²⁾، فتعلم العربية أمر لا بد منه لفهم المراد من القرآن الكريم، إذ كيف يفهم خطاباً من لم يدرك خصائص اللغة، ولا يقصد بالعربية مفردات ألفاظ فحسب، أو التراكيب فقط، أو البيان والمعاني والأساليب، إنما يعني جميع ذلك وغيره، مما له صلة في بيان القرآن، وإيضاح مراده، (ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع في أساليبهم، في خطبهم،

(1) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 1، ص: 124 - 125.

(2) جامع البيان، للطبري، ج 1 / المقدمة.

وأشعارهم، وتراكيب بلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل، والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين⁽¹⁾.

وقد أكد الزمخشري على ضرورة علمي المعاني والبيان لفهم القرآن فقال: (علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه، وإطالة النظر فيه، كل ذي علم، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، . . .، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما: علما البيان والمعاني)⁽²⁾.

ومَن لا يعرف طرائق العرب في البيان، فإنه لا يستطيع أن يفرِّق بين [إِيَّاكَ نَعْبُدُ] ونعبدك، [وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ] ونستعين بك. فيقع في المزالق الخطيرة.

الضابط الثاني: معرفة أسباب النزول يعين على فهم الآية

إن معرفة سبب نزول الآية باب عظيم لفهم القرآن، وطريق من طرق التوصل إلى إدراك مراد الله تعالى فيها. بقدر الطاقة البشرية.

فالذي يدرك سبب نزول الآية، تكون لديه القدرة والإدراك الواعي على الفهم الصائب لمراد القرآن الكريم، فلا يفسر آية بغير وجهها، ولا يضع كلمة في غير بابها، من هنا عنيت كتب علوم القرآن بتأكيد هذه الناحية من نواحي فهم القرآن، واعتبارها قاعدة أصيلة من قواعد الفهم القرآني. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: (ومعرفة سبب النزول يعين على فهمه؛ فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب)⁽³⁾.

كذلك اعتنى به المفسرون في مقدمات تفاسيرهم التي تعد بذوراً لكثير من قواعد الفهم القرآني وأصول التفسير. قال الواحدي، "لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها"⁽⁴⁾.

كما إن إدراك السبب يعين على الحفظ، ويثبت في ذهن السامع؛ وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة، كل ذلك من دواعي تقرر الأشياء، وانتقاشها في الذهن، وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في

(1) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 1، ص: 18.

(2) الكشاف من المقدمة، ج1، ص: 15 - 16، وانظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 1، ص: 19.

(3) مقدمة أصول التفسير، لابن تيمية، ص: 81.

(4) انظر: أسباب النزول، للواحدي، ج1، ص: 3.

الفكر، وذلك هو قانون تداعي المعاني المقرر في علم النفس⁽¹⁾، ويمكن أن تدرك قيمة سبب النزول وأثر معرفته في فهم الآية من نصوص متعددة، فعروة بن الزبير t يفهم قوله تعالى: [إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا] [البقرة: 158]، أن لا إثم على من ترك السعي بين الصفا والمروة لأن الآية الكريمة تقول: [فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا] ونفي الجناح لا يدل على الفرضية، حتى صوبت له خالته السيدة عائشة في فهم بتذكيره بسبب النزول، وهو أنه كان على الصفا والمروة أصنام، وكان المشركون إذا سعوا تمسحوا بهما، فلما ظهر الإسلام وكسرت الأصنام تحرج المسلمون أن يطوفوا بهما لذلك، ولأن الله تعالى لم يذكر السعي بين الصفا والمروة في القرآن كما ذكر الطواف⁽²⁾.

الضابط الثالث: معرفة مكان النزول يعين على فهم الآية (المكي والمدني)

غير خاف على كل مسلم أن القرآن نزل على مرحلتين، ولكل نزول بينته الخاصة به، وملايساته وأحواله التي أدركها قارئ القرآن وسامعه، ووضعها المفسر في حسابانه فهماً وإدراكاً.

ولا شك أن إدراك البيئة المكانية لنزول الآية الكريمة يعين على فهمها، وإدراك مراميها؛ لذلك قال العلماء: (معرفة المكي والمدني من المباحث المهمة التي يحتاج لها المفسر لكتاب الله- تعالى-، ممن نصب نفسه للاجتهد)⁽³⁾، ولهذا الضابط فوائد متعددة منها: التمييز بين الناسخ والمنسوخ، ومعرفة تاريخ التشريع، ومنها الثقة بهذا القرآن، ووصوله إلينا سالماً من التغيير والتزيف، ومعرفة الخصائص البلاغية للقرآن الكريم المكي والمدني.

الضابط الرابع: معرفة الناسخ والمنسوخ

معرفة الناسخ والمنسوخ في القرآن من الأسس الرئيسية في فهم القرآن وإدراك معانيه؛ يقول الزركشي: (والعلم به عظيم الشأن، . . . وقد قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسر كلام الله إلا بعد أن يعرف فيه الناسخ والمنسوخ، وقد قال علي رضي الله عنه لقاص: أتعرف

(1) انظر: مناهل العرفان، للزرقاني، ج1، ص: 113 - 114، والمدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبه، ص: 125، دراسات في علوم القرآن، د. محمد بكر إسماعيل، ص: 198.

(2) رواه البخاري، كتاب: التفسير، باب: قوله: (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما)، ج6، ص: 23، رقم: 4495، وانظر: سبب نزول الآية في العجائب في بيان الأسباب، لابن حجر، ج1، ص: 406.

(3) انظر: الإتيان، للسيوطي، ج 1، ص: 34، المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبه، ص: 197.

الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا أعلم، قال: هلكت وأهلكت⁽¹⁾.

ومعرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم في فهم الإسلام وفي الاهتداء إلى صحيح الأحكام، خصوصاً إذا ما وجدت أدلة متعارضة لا يندفع التناقض فيها إلا بمعرفة سابقها ولاحقها، وناسخها ومنسوخها؛ ولهذا كان السلف يعنون بهذه الناحية، ويلفتون أنظار الناس إليها، ويحملونهم عليها، ولقد جاء في الأثر أن ابن عباس ؓ فسر الحكمة في قوله تعالى: [وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ] [البقرة: 269]، بمعرفة ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه.

وإدراك الناسخ والمنسوخ يقف الباحث والمفسر على السابق والمسبوق من القرآن الكريم، وبطلعه على الأحوال التي نزل القرآن الكريم ليعالجها، حتى يكون أقدر على توظيف الآية القرآنية الكريمة في مكانها الطبيعي، دون غلو ولا شطط، (إن علم الناسخ والمنسوخ يلقي الضوء ساطعاً على المراحل المتعاقبة لنزول القرآن الكريم، ويعين على تتبعها ورسمها بدقة بالغة وهو ضرب من ضروب التدرج في نزول الوحي، ومعرفتنا بما صح من جوهره تيسر علينا تعيين السابق والمسبوق من النوازل القرآنية، . . .)⁽²⁾.

الضابط الخامس: معرفة المحكم والمتشابه

معرفة المحكم والمتشابه باب قوي من بواب الفهم الصحيح للقرآن الكريم، وطريق من طرق التوصل إلى إدراك المعنى القرآني، وضابط من الضوابط التي لوراها المفسر والباحث والقارئ لنجا من الزيغ والسقوط في الفهم الغير صحيح، من هنا عني العلماء قديماً وحديثاً في دراستهم له، وتناولهم لمباحثه، فالقرآن الكريم وردت فيه آيات ثلاث، تفيد أولاًها: أن القرآن كله محكم، وهي قوله: [أَلَمْ يَكُنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ تُقَالِ: كَذِبٌ أَلَمْ يَكُنْ أَكْثَرُ حِكْمًا] [هود: 1]، وآية تدل على أنه كله متشابه، وهي قوله: [اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا] [الزمر: 23]، والثالثة تفيد أن بعضه محكم، وبعضه متشابه، وهي قوله: [هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ] [آل عمران: 7]. وقد ذكر العلماء وجوهاً وتوجيهات لهذه الآيات الكريمة نختار منها: أن المراد بالإحكام: (أنه رصين ومتقن حكيم، يتحدى الزمن، ولا ينتابه تصدع ولا وهن، ومعنى كونه متشابهاً: أنه يشبه بعضه بعضاً، في أحكامه، وحسن بيانه، وبلوغه حد الإيجاز في ألفاظه ومعانيه، حتى إنك لا تستطيع أن تفاضل بين كلمات وآيات في هذا الحسن والإحكام والإيجاز، وأما أن بعضه محكم وبعضه متشابه فمعناه: أن من القرآن ما اتضحت دلالاته

(1) انظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ج2، ص: 157 - 158، بتصريف يسير.

(2) انظر: مباحث في علوم القرآن، د صبحي الصالح، ص: 259، بتصريف يسير.

على مراد الله- تعالى-، ومنه ما خفيت دلالاته على هذا المراد الكريم، فالأول هو المحكم، والثاني هو المتشابه، على خلاف بين العلماء في ذلك .

ومما يظهر لك منزلة هذا الباب في الفهم والتفسير أن تدرك أن آية آل عمران وهي قوله: [هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ] الآية، كانت فارقة بين السلف والخلف في الفهم والتفسير، فقد وقف السلف على قوله تعالى: [وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ]، وعدو الواو استثنائيه لمعنى جديد، ورأى الخلف أن الواو العاطفة عطفت الراسخين في العلم على لفظ الجلالة (الله) في العلم بالمتشابه، فأهل العلم به يردون ما تشابه منه إلى مُحكمه، على غرار أهل الزيغ والغواية.

يقول الزركشي: (فمنهم من رجح أنها (أي الواو) للاستئناف وأن الوقف على [إِلَّا اللَّهُ] أن الله تعيدهم من كتابه بما لا يعلمون، وهو المتشابه كما تعيدهم من دينه بما لا يعقلون، وهو التعبدات، وفهم من رجح أنها للعطف أن الله لم يكلف الخلق بما لا يعلمون، وضعف الأول لأن الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينتفع به عباده، ويدل على معنى أرادته، فلو كان المتشابه لا يعلمه غير الله لكرر معناه، ولا يسوغ لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ لم يعلم المتشابه، فإذا جاز أن يعرفه الرسول مع قوله: [وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ] جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته، والمفسرون من أمته، ألا ترى أن ابن عباس كان يقول: أنا من الراسخين في العلم، ويقول عند قراءة قوله تعالى في أصحاب الكهف: [مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ] [الكهف: 22] وأنا من أولئك قليل⁽¹⁾ من هنا تظهر قيمة إدراك المحكم والمتشابه لتفسير كتاب الله عز وجل.

الضابط السادس: معرفة الوقف والابتداء:

ولا شك أن معرفة الوقف والابتداء معين على معرفة اكتمال المعنى، وفهم المراد؛ لذلك عني به العلماء، وعدوه علماً مستقلاً من علوم القرآن، وقد مضى بنا قبل قليل مدى الخلاف الواقع بين السلف والخلف من أجل خلافهم في الوقف، في آية آل عمران.

ونستطيع أن نفرق بين قارئ فاهم للقرآن وقارئ غير واقف على المعاني، من طريقة الوقف والابتداء عند كليهما، فقد تسمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: [جَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا] [القصص: 25]، فيقف على (استحياء) ويبدأ بقوله: [عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ]، فيفيدك معنيين: الأول أن مشيها كان على استحياء، والثاني أن كلامها على استحياء، وما ذلك إلا لفهمه للمعنى المبني على طريقة

(1) البرهان، للزركشي، ج2، ص: 202 - 203، والأثر أخرجه الطبري، عند تفسير الآية الكريمة، ج15، ص: 219، والسيوطي في الدر المنثور، ج5، ص: 375.

الوقف والابتداء، ومن هنا كثرت عناية السلف بالحديث عن الوقف والابتداء، وصلتهما بالمعنى، وأهمية إدراكها، ولم يكن هذا الاهتمام إلا بعد العصور الأولى لأسباب متعددة، منها: أن الوقف والابتداء كان معروفاً لدى الأولين حتى اختلطت الأمور على من بعدهم، فنشط لذلك حكماء أفاض، ضبطوا وقوف القرآن وابتدائه، حسب مقتضيات المعنى، يقول ابن عاشور: (لم يشتد اعتناء السلف بتحديد أوقاف القرآن لظهور أمرها، . . . ، فلما كثرت الداخلون في الإسلام من دهماء العرب، ومن عموم بقية الأمم، توجه اعتقاد أهل القرآن إلى ضبط وقوفه؛ تيسيراً لفهمه على قارئيه، فظهر الاعتقاد بالوقوف، . . .)⁽¹⁾، ونقل عن أبي حاتم قوله: (من لم يعرف الوقف لم يعلم القرآن، وبالجملة فالوقف حلية التلاوة، وزينة القارئ، . . .)⁽²⁾، وذكر النووي: (أن القارئ إذا ابتداء من وسط السورة، أو وقف على غير آخرها ينبغي له أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعبءه ببعض، وأن يقف على الكلام المرتبط، . . .)⁽³⁾.

الضابط السابع: الإكثار من النظر في كتب التفسير، ودراساتها:

دراسة أقوال السلف من المفسرين، وعلى رأسهم ابن عباس، وكذلك ابن مسعود، وابن عمر، وعبدالله بن عمرو بن العاص. فإن هؤلاء نُقِلت أقوالهم عن طريق تلاميذ أخذوا عنهم، وهؤلاء أخذوا عن كبار الصحابة؛ كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي موسى الأشعري وأبي رضي الله عنهم، وغيرهم.

ففهم آيات القرآن وفق تفسير السلف من الصحابة والتابعين لا مَجيد عنه لمن أراد أن يفهم عن الله - سبحانه وتعالى - فإن هؤلاء عاصروا التنزيل، وكانوا أعلم الناس بكلام العرب، وشاهدوا كيفية تطبيق القرآن، والإكثار من النظر والقراءة في تفسير أهل العلم من العلماء والمفسرين، الذين فهموا القرآن وفق الأصول السابقة، وآتاهم الله فهماً في القرآن، مطلب رئيس.

الضابط الثامن: كثرة العكوف على قراءة القرآن مع النظر والتأمل والتفكير والتدبر والمدارسة

يقول الله عز وجل: [ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِن هُوَ إِلَّا نَزِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾] [سبأ: 46]، فإذا جلس الإنسان وحده وتفكر في آيات الله، انفتح له فيها باب

(1) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج 1، ص: 84.

(2) انظر: الوقف والابتداء وصلتهما بالمعنى في القرآن الكريم، رسالة ماجستير للدكتور/ عبد الكريم إبراهيم عوض صالح، ص: 4 - 5، بتصرف يسير، وانظر: الاقتداء في معرفة الوقف والابتداء، للنكز اوي، ص: 11، ولطائف الإشارات، للقسيري، ج 1، ص: 249.

(3) انظر: التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، ص: 75 - 76.

عظيم للفهم والعلم واليقين.

والاجتماع على مائدة القرآن نعمة لا يعرف قدرها إلا من ذاقها، كيف لا؟ يقول صلى الله عليه وسلم " ما اجتمع قوم

في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده"⁽¹⁾ فمدارسة القرآن تصنع العجب في إثارة معانيه، واستخراج كنوزه.

الضابط التاسع: إنزال القرآن على الواقع لأنه صالح لكل وقت (فقه الواقع)

القرآن قول متجدد لا تزال تتحقق آياته كل يوم؛ لأنه ليس وصفاً لحدث مضى وانتهى، وإنما هو حكم الله على الناس والأحداث، وقضية البشر الأساسية هي الإيمان والكفر، والموقف من الرسالات، وهذه القضية لا يتغير فيها إلا الوجوه فقط، وإلا فالأحداث والوقائع واحدة، بل والكلمات واحدة [مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ] [فصلت: 43]، و [كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ] [آتُوا صَوَابًا بِهِ] [الذاريات: 52 - 53]، فقصه كل رسول واحدة. وما أتى من رسول إلا انقسم الناس حوله، ويقوم الصراع، ثم تكون العاقبة بهلاك الظالمين وبالنصر والتمكين للمؤمنين، وكذلك الإيمان واحداً. اختلفت أسماء المؤمنين لكنهم كانوا في كل عصر على قلوب وأعمال واحدة؛ [إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ] [الأنبياء: 92]. ويبقى وصف كفار الأمم هو وصفهم اليوم، ووصف المنافقين بالأمس هو وصفهم اليوم: [وَمِنَ النَّاسِ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ] [البقرة: 8]. ومع هذا فيجب الحذر من إنزال القرآن على غير منازله، فمن أنزل آيات المؤمنين في الكافرين أو العكس، ضل ولم يهتد، ووضع القرآن في غير مواضعه، وهذا باب عظيم ضل فيه من ضل، وهذا الباب- أعني إنزال آيات القرآن منازله الصحيحة، وفقه الواقع على ضوء الكتاب- هو ثمرة الضوابط السابقة جميعها، وهو ثمرة الهداية والتوفيق، [وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ] [النور: 40].

الضابط العاشر: أخذ القرآن للعمل:

لا تخالط بشاشة القرآن القلب إلا من أخذه للعلم والعمل، وهذا هو الإيمان، وأما من أخذه للعلم فقط دون العمل، فإنه يكون حجة عليه، ويغلق قلبه دونه عياداً بالله.

كم من أوعية حفظت القرآن ولم تهتد به عياداً بالله، وكم من منافقين وكفار علموا آياته وكذبوا بها، [وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا آتَاتِهِ]

(1) أخرجه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى، ج4، ص: 2074، رقم: 2699.

حَسَارًا ﴿٥٣﴾ [الإسراء: 82]. وهذه من الضوابط المهمة جداً، فثمرة العلم والعمل.

الضابط الحادي عشر: معرفة عادات العرب وأخبارهم وأحوالهم

من الأمور اللازمة والمهمة للمفسر حتى يفهم مراد القرآن، أن يعرف عادات العرب التي نزل القرآن ليتحدث عنها، وما تميزت به حياتهم الخاصة، وما انفردت به من الخصائص والسمات، فقد كان للعرب مثلاً عادات وأعراف، في علاقة الرجل بالمرأة، ونظرته إليها، فنزل القرآن يراعي هذه العلاقة، بما يتناسب مع تلك العادات، قال تعالى وهو يتحدث عن علاقة الأب بابنته: [ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَلَّى مِنَ الْقَوْرِ مِنْ سُوءٍ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ] [النحل: 58 - 59]، فالآية تصور بجلاء علاقة العربي بابنته، وتوضح الخلفية الاجتماعية التي كان يعيشها العربي. وغير ذلك.

فمعرفة أخبار العرب تتيح للمفسر وقارئ القرآن الكريم أن يتصور تلك الحياة الاجتماعية، التي نزل القرآن الكريم فيها، مقرأً لبعضها أو مقوماً.

الضابط الثاني عشر: معرفة موضوع القرآن ومقاصده الأساسية

إن معرفة أهداف القرآن الكريم ومقاصده تقصر الطريق على الباحثين عن المعرفة القرآنية، والفهم القرآني؛ ذلك لأن إدراك الهدف من أي شيء سبيل يوصل إلى إدراك المراد منه. (إننا قبل أن ننظر في كتاب ما عن مسألة من مسائل العلم تشغل بالنا ننظر في موضوع الكتاب، فمثلاً لو أن إنساناً أراد أن يبحث في قاعدة نحوية لرجع إلى كتاب من كتب النحو، ولا يتصور أن يأخذ كتاباً في علم النفس، . . .، وموضوع القرآن: هو الإنسان والحياة الإنسانية، ولقد عالج القرآن الكريم قضية الإنسان، وحدد أساس نجاحه وسعادته، . . .) (1). إن إدراك المفسر والقارئ لهذه الكليات الجامعة، والقضايا والأهداف الواضحة لموضوع القرآن، يجعل نظره ينصب على الموضوع الأساس الذي نزل له القرآن الكريم، وهو خليفته في الأرض الإنسان والإنسانية.

كذلك فهم المقاصد الأساسية التي يتغيهاها القرآن الكريم يعين القارئ والمفسر على إدراك خلفيات هذه المقاصد والكليات التي نزل القرآن ليرسخها، من خلال أساليبه المتعددة، وطرائقه المتنوعة، من: القصص، والتوحيد، . . .، وإدراك هذه المقاصد القرآنية الجادة يحفظ العقل من الشطط بها في التفسير، من هنا عني عدد غير قليل من الأئمة والعلماء بذكر العلاقة بين صحة الفهم القرآني وإدراك المقاصد الأساسية للقرآن، ومن هؤلاء: ابن

(1) بحث في أصول التفسير، للصباغ، ص: 236 - 237.

الفهم الصحيح للقرآن بين ضوابط منجية ومزالق مهلكة. (539-509)

عاشور، إذ قال: (المقصد الأعلى من القرآن هو صلاح الأحوال الفردية والاجتماعية والعمرانية، . . .).

المبحث الثالث: العقبات التي تقف في طريق فهم القرآن الكريم

هناك عقبات تقف حجر عثرة أمام الإنسان في طريق فهم القرآن الكريم، ومن أبرز هذه العقبات:

1. عدم الإخلاص والوقوف عند حسن التلاوة وجمال الصوت في قراءة القرآن:

على المسلم أن يُخْلِصَ نَيْتَهُ في قراءته وتلاوته للقرآن الكريم؛ حتى يَظْفَرَ بمراده، فيرزقه الله ما يَنْشُدُهُ وَيَطْلُبُهُ، يقول ابن تيمية رحمه الله: "مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا مِنْهُ الْهُدَى، تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ"⁽¹⁾.

ويقول القرطبي رحمه الله: "فإذا استمع العبدُ إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بنية صادقة على ما يُحِبُّ اللهُ، أفهمه كما يُحِبُّ، وجعل في قلبه نوراً"⁽²⁾. والعلم الذي يجب على المسلم أن يطلبه من القرآن الكريم هو العلم بالله تعالى واليوم الآخر.

إن الوقوف عند ترنيم الصوت وحده دون النظر في مرامي الآيات الكريمة من عقبات الفهم، وقد أكد هذا ابن قدامة بقوله: (وليتخل التالي عن موانع الفهم، مثل أن يخيل إليه أنه ما حقق تلاوة الحرف، ولا أخرجه من خرجه، فيصرف همته عن فهم المعنى)⁽³⁾، يقول ابن تيمية رحمه الله عن ابن عباس وقتادة في قوله [وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ] [البقرة: 78] أي: غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظاً بلا فهم، لا يدرون ما فيها⁽⁴⁾.

أقول: وتدبر القرآن مرحلة تالية لمرحلة الفهم، ولا يمكن أن يتأتى التدبر لمن لم يفهم معاني القرآن.

2. عدم التدبر والميل إلى نزعة أو مذهب

فإن ذلك يقطع على الإنسان طريق الفهم، ويجعله يصدر أحكاماً مسبقة، بناء على تصورات خاضعة لمذهبه، أو نزعته، ولا يتيح له الفرصة ليتعرف على مراد الله من كلامه،

(1) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج3، ص: 137.

(2) تفسير القرطبي، ج11، ص: 176.

(3) مختصر مناهج القاصدين، لابن قدامة، ص: 67 - 68.

(4) انظر: مجموع الفتاوى، ج 17، ص: 434.

فيبادر إلى المصادرة على الفهم السليم والإدراك الصحيح، بل قد يلوي مراد الآية حتى توافق هواه، وقد ذكر ابن عاشور أن من له ميل إلى نزعة، أو مذهب، أو علة، (يتأول القرآن على وفق رأيه، ويصرفه عن المراد، ويرغمه على تحمل ما لا يساعد عليه المعنى المتعارف، فيجر شهادة القرآن لتعزيز رأيه، ويمنعه عن فهم القرآن حق الفهم ما قيد عقله من التعصب، . . .) (1)، وقد وصف الغزالي هذا الذي حال ميله إلى نزعته ومذهبه بينه وبين الفهم بأنه: (شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفاً على مسموعه، . . .) (2).

قلت: إن لي النصوص على حسب المذهب أو النزعة انحراف وضلال عن الحق وبعداً عن الفهم.

3. أمراض القلوب والإصرار على الذنوب والمعاصي

من أكثر الصوارف عن فهم القرآن الكريم والوصول إلى معانيه أن يكون القلب- وهو محل العقل والفهم والتدبر والوعي- غائباً أو مريضاً؛ يقول الله عز وجل: [سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ] [الأعراف: 146]، ومن موانع فهم القرآن والتلذذ به أمراض القلوب، قال ابن حجر: (بمقدار طهارة قلب المؤمن يكون أثر القرآن عليه)، وقال ابن قدامة: (وليتخل التالي عن موانع الفهم، ومن ذلك أن يكون مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى بهوى مطاع، . . .) (3)، وقال الزركشي: (اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم المعاني للوحي، ولا يظهر له أسرارها وفي قلبه بدعة، أو كبر، أو هوى، أو حب دنيا، أو هو مصر على ذنب، . . .، وهذه كلها حجب وموانع بعضها أكد من بعض) (4). ويقول ابن تيمية: (فإن الإنسان إذا قرأ القرآن وتدبره، كان ذلك من أقوى الأسباب المانعة له من الوقوع في المعاصي) (5).

ولكون القلب هو محل الانتفاع أو الإعراض عن هذا الانتفاع، نسب الله- تعالى- في القرآن أفعالاً متعددة، مثل: والإصغاء، والخشوع، والوجل، والطمأنينة، كما نسب إليها القسوة، والكسب، والمرض، والختم، والصرف، والانتفاع، واللهو، والزيغ، إلى غير هذه

(1) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ج1، ص: 31.

(2) إحياء علوم الدين، للغزالي، ج1، ص: 398.

(3) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة، ص: 67.

(4) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، ج2، ص: 320.

(5) مجموع الفتاوى، ج20، ص: 123.

الأوصاف التي تحتاج إلى دراسة مفردة⁽¹⁾ وأبين موانع التدبر والفهم للقرآن: الأفعال على القلوب واليران والطبع والغشاوة وهي المعاصي، قال الله عز وتعالى: [أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ] [محمد: 24]. وما أجمل قول الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفطي * فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور * ونور الله لا يهدى لعاصي

4. النظرة الجزئية للقرآن الكريم

إن النظرة الجزئية لآيات القرآن أو التصور الموضوعي، تصور ناقص يمثل عقبة من عقبات الفهم القرآني، ذلك أن القرآن كل لا يتجزأ في أحكامه وتشريعاته؛ (فالقرآن غذاء روحي مكتمل العناصر، . . .، إن الرؤية القرآنية لا يمكن أن تكون إلا حضارة كاملة. . . ومن المستحيل أن أنظر إلى القرآن النظرة الجزئية، . . . إن النظرة الشاملة للقرآن هي النظرة الصحية للدراسات القرآنية، ولا يمكن الرضي بنظرة جزئية؛ . . .)⁽²⁾، فاجتزاء النص يؤدي إلى تشويه القضية الكاملة، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يقول عن اليد وحدها إنها إنسان، فكذلك لا يستطيع أن يدرك الفهم الصحيح للقرآن الكريم إلا بالنظرة الكاملة، التي تترقى الموضوعية إلى النظرة الموضوعية.

وقد تكون للنظرة الجزئية للقرآن الكريم آثار وخيمة، على الفكر الإسلامي، فهي تقيّد من الآيات ما لا تدل عليه الآيات وتحتمله، وتنسب إلى القرآن أحكاماً ليست من أحكام القرآن، وما ذلك إلا لأنها نظرة موضوعية، وقفت عند حد لا يكتمل به المراد، وذلك أوقع الفكر الإسلامي قديماً وحديثاً في مسائل شائكة، بل أوقع بعضهم أحياناً في فهم تناقض تماماً مراد القرآن الكريم، فمثلاً فهم بعضهم لقوله: [وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ] [الصافات: 96]، أن العمل مخلوق لله "ونسينا أن هذا الكلام لو صح ما كان عبدة الأصنام مسئولين؛ لأنهم إذا كانوا مخلوقين لله، وشركهم ووثنيّتهم مخلوقة لله، فما عليهم من ذنب، لكن نحن أخذنا ظاهر الآية، وقطعناها من سياقها من قبل ومن بعد، وجعلناها هكذا دليلاً لرأي باطل. . .)⁽³⁾.

(1) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبدالباقى، مادة (قلب) .

(2) كيف نتعامل مع القرآن، للغزالي، ص: 71، بتصرف يسير.

(3) تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن، للسعدي، ص: 329.

5. التورع الموهوم:

بعض الناس لديهم فهم مغلوط، وورع مغشوش، يضع الأمور في غير مواضعها، ومن ذلك بعدهم عن تدبر القرآن ظناً منهم أنهم ليسوا أهلاً للتدبر والتفكير، ويكتفون من ذلك بالقراءة المجردة، والوقوف عند تحصيل أجر الأداء، ناسين أن دور القرآن في الحياة ليس تحصيل الثواب للأخرة فحسب، بل إعمار الكون على اسم الله- تعالى-، وعلى ضوء منهجيه وتشريعه، وهذا الفهم المغلوط، باب من أبواب تلبيس الشيطان على الإنسان، حتى قال ابن هبيرة -رحمه الله- ومن مكاييد الشيطان تنفيره عباد الله من تدبر القرآن؛ لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة حتى يقول الإنسان أنا لا أتكلم في القرآن تورعاً⁽¹⁾.

وقد عد ابن القيم هذا التلبيس لوناً من ألوان الحرج، يخشى منه، فقال: (ومن قال إن له- أي القرآن- تأولاً لا نفهمه ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه، ففي قلبه منه حرج)⁽²⁾؛ ذلك لأن الهدف الأسمى من القرآن الكريم ليس فقط مجرد النظر في حروفه وصفاته، بل إقامة حدوده وتصورات، ومن أروع ما يذكر في ذلك كلام الشاطبي عندما يوازن بين كونه معجزاً، وكونه مفهوماً معلوماً، إذ يقول: (فمن حيث كان القرآن معجزاً أفحم الفصحاء، وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله، فذلك لا يخرج عن كونه عريباً جارياً على أساليب كلام العرب، . . .⁽³⁾، فكون القرآن معجزاً للفصحاء، ومسكناً للبلغاء، لا يعني أن يكون عسير الفهم، أو بعيد المنال، وفي الحياة أفراداً لا يربطهم بالقرآن، إلا إمعان النظر، وجودة التفكير، وحسن المطالبة يأتون بمعاني لم يقف عليها علماء أفذاذ، ولعل ذلك وجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم. وقد فند الشنقيطي شبهة أن تدبر القرآن لا يكون إلا لمجتهد خاص، فذكر عند تعرضه لقوله تعالى: [أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا] [محمد: 24]، الآيات المماثلة لذلك في الدعوة إلى التدبر والتفكير، وذم الإعراض عن التدبر والتفهم كثيرة، . . .)، وذكر- رحمه الله- أن كلام بعض الأصوليين بأن تدبر القرآن، وتفهمه، والعمل به، لا يجوز إلا لمجتهدين خاصة. قول لا سند له من دليل شرعي أصلاً، بل الحق الذي لا شك فيه أن كل من له القدرة من المسلمين على التعلم، والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة، يجب عليه تعلمها، والعمل بها،⁽⁴⁾.

(1) انظر: تدبر القرآن، لسلمان السنيدي، ص: 52، نقلا عن ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب، ج3، ص: 273.

(2) التبيين في أقسام القرآن، لابن القيم، ص: 144.

(3) الموافقات، للشاطبي، ج 3، ص: 185.

(4) أضواء البيان، للشنقيطي، ج7، ص: 257، 258.

6. الوقوف عند ما سبق وأنه لا جديد:

من صوارف الفهم عن المعنى المراد في القرآن الكريم، أن يعتقد الإنسان أنه لا جديد على ما سبق، وهذا الفهم يجعل القرآن يقف عند عصر وزمان محددين، أو الوصف بالرجعية، والواقع أن عطاء القرآن الكريم لا يقف عند حد، بل يمضي مضي الزمان والمكان، ويبقى ما بقى الليل والنهار.

إن من أخطر الإصابات التي لحقت بعقل المسلم، فحالت بينه وبين التدبر وكسر الأقفال، والتحقق بالفكر القرآني والرؤية القرآنية الشاملة، والاعتراف منها لعلاج الحاضر، والامتداد صوب المستقبل، واعتماده مصدراً للمعرفة: التوهم بأن الأبنية الفكرية السابقة التي اتخذت من القرآن في العصور الأولى هي نهاية المطاف، . . . وفي هذا ما فيه، من محاصرة للنص القرآني، . . . الأمر الذي يحول بين الإنسان والتدبر المطلوب إليه نص القرآن⁽¹⁾، ولا يشك إنسان بأن خير الفهوم فهوم الجيل الذي شهد له النبي ﷺ بالخيرية، إلا أن هذا ليس هو نهاية المطاف، بل القرآن ومعانيه يتجدد ولا يتبدد، ولكن يحتاج إلى من يحمل أدوات الفهم السليم، حتى يوظفه في كل عصر ومصر، وفي كل زمان ومكان.

وهذا الصارف له بما قبله صهر ونسب، فإذا كان السابق يحول دون ارتفاق معاني القرآن الكريم، وسبر أغواره، والعيش في ظلاله، فإن هذا الصارف يجعل الناظر في القرآن يقف عند فهوم السابقين، دون محاولة تجديد هذه الفهوم بما جد من معطيات العصر، ولا يعني ذلك القفز- كما يقولون على هذا التراث الضخم- الذي هو وسيلة من وسائل الفهم، وإنما معناه هضم هذا الزخم العلمي والتراثي الزاخر، حتى نفيد من سناه، ونستضيئ بضياه، ونمضي على دربه وطريقه.

ولا ينبغي حصر الفهم القرآني في فترة محددة، وفهم محدد، فقد أمرنا بأن نوظف الفهم السابق الذي عاشه الأئمة السابقون، بما ينفع ما نعيشه في حياتنا المعاصرة، (إن الدعوة إلى محاصرة العقل، والحجر عليه، وقصر الفهم والإدراك والتدبر على فهوم السابقين، هو الذي ساهم بقدر كبير في الانصراف عن تدبر القرآن، وأقام الحواجز النفسية المخيفة التي حالت دون النظر، وأبقى الأقفال على القلوب، . . .)⁽²⁾.

(1) كيف نتعامل مع القرآن، من مقدمة أ. عمر عبيد حسنة، ص: 17 - 18.

(2) كيف نتعامل مع القرآن لعمر حسنة، ص: 19.

7. الانصراف عن القرآن الكريم إلى غيره

قال ابن القيم وابن كثير: (ترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتهال أو امره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه)⁽¹⁾. وقال ابن تيمية: (وأما في باب فهم القرآن فهو (أي: قارئ القرآن) دائم التفكير وال تدبر لألفاظه واستغناؤه بمعاني القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس،...)⁽²⁾. فكلام ابن كثير يدل على أن انصراف الطلاب إلى طلب العلم في غير القرآن نوع من أنواع هجره، وكلام شيخ الإسلام يدل على أن الواجب على الطلاب أن يستغنوا بمعاني القرآن وأحكامه عن غيره من كلام البشر. وهكذا كان بعض السلف يقدمون القرآن وعلومه وتفسيره على أي علم آخر؛ فهذا عبد الله بن المبارك يختبر من جاء يطلب الحديث عنده في القرآن وبعض علومه⁽³⁾. وذكر ابن عبد البر عن عمر: (أن قوماً كانوا يكتبون كتباً فأكبوها عليها وتركوا كتاب ربهم)⁽⁴⁾، عن علي قوله: (أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاها؛ فإنما هلك الناس حيث يتبعون أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم)، وما أشبه الليلة بالبارحة! فليزن طلاب علم هذا الزمن تعليمهم بهذا المنهج الذي رسمه القرآن وفعله السلف، ولينظروا أين مكانهم من فهم القرآن والتفقه فيه، وما حظهم من هدايته؟

إلى غير ذلك من المعوقات التي لا يمكن حصرها.

المبحث الرابع: الأمور التي تعين على فهم القرآن الكريم

أما معينات الفهم، والوصول إلى معرفة معاني القرآن الكريم، بقدر الطاقة البشرية فهي متعددة منها:

1. العيش مع القرآن:

من ذاق عرف، ومن عرف اغترف، ومن حرم انحرف، فاستصحاب القرآن في القلب والعقل، والتحاكم إليه، باب عظيم النفع من أبواب الإفادة من معانيه، وهو علامة على حياة القلب واستعداده للنفع، كالبلدة الآمنة التي [يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ] [النحل: 112]، [كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ] [البقرة: 265]، يقول ابن القيم: (من الناس من يكون حي القلب، واعي، تام الفطرة، فإذا فكر

(1) تفسير ابن كثير، ج 3، ص: 349، تفسير ابن القيم، ج 3، ص: 292.

(2) مجموع فتاوى ابن تيمية، ج 16، ص: 48.

(3) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للرامهرمزي، ص: 203.

(4) جامع بيان العلم، لابن عبد البر، ج 1، ص: 76 - 77.

بقلبه، وجمال بفكره، دله قلبه وعقله على صحة القرآن، وأنه حق، وشهد قلبه بما أمر به القرآن، فكان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفطرة، وهذا وصف الذين قيل فيهم: [وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾] [سبأ: 6]، وقوله: [تُورَعُ عَلَى نُورٍ] [النور: 35]، ... (1).

إن معايشة القرآن الكريم تفتح للإنسان مغاليق الفهم، وتيسر له سبل الوصول إلى مراد الله تعالى، وكم من فقهاء ومفسرين عاشوا في ظلال القرآن الكريم في أتون المحن، فأثمرت تلك المعايشة والمخالطة مالا يتيسر لغيرهم في بحبوحة الحياة، ذكر ابن القيم عن شيخه ابن تيمية- رحمه الله- إذ يقول سمعته غير مرة يقول: (ما يصنع أعدائي بي، إن حبسوني فحبسي خلوة، وإن نفوني فنفي سياحة، وإن قتلوني فقتلي شهادة في سبيل الله، أنا في صدري كتاب الله وسنة نبيه)(2)، وكم لله من منح لمن عاشوا مع القرآن الكريم.

2. معرفة الله تعالى وتعظيمه:

إن معرفة الله سبحانه وتعظيمه باب عظيم لتدبر كلامه وفهمه، فإن من امتلأ قلبه معرفة بالله وتعظيماً له؛ عظم كلامه، وتمعن فيه تدبره. وقد أخبر سبحانه أن المشركين لا ينتفعون بكتابه، فقال: [وَمَا أَنْتَ إِلَّا] [فاطر: 22]. وبين سبحانه أن سبب تكذيب المشركين؛ عدم معرفتهم الله حق المعرفة كما قال: [وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ] [الأعراف: 64]. قال ابن عباس: "عميت قلوبهم عن معرفة الله وقدرته وشدة بطشه"(3). وقال المحاسبي: (وتعظيم القرآن من تعظيم الله تعالى، ... (4)).

3. حضور القلب ووعيه، وصدق الطلب

فكيف يفتح القرآن كنوزه لقلب غافل ساه لاه؟، إن القلب إذا حضر عند سماع القرآن، أو تلاوته وقراءته، فتحت أمامه مغاليق الفهم، وتبدد لديه كسف الظلام، فإذا بنور القرآن يسرى في عقله، وقلبه، وروحه، ودمه، فيجعله إنساناً آخر.

إن صدق القلب والإخلاص والإلحاح في طلب الفهم طريق موصل إلى المراد، قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: (من تدبر القرآن طالباً الهدى فيه تبين له طريق الحق)(5).

(1) انظر: الفوائد، لابن القيم، ص: 10 - 11، بتصرف يسير.

(2) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، لابن القيم، ص: 73 - 74.

(3) تفسير البغوي، ج 3، ص: 242، زاد المسير، لابن الجوزي، ص: 503، وانظر: الوجيز للواحيدي، ص: 399.

(4) انظر: فهم القرآن، للمحاسبي، ص: 282، 302.

(5) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ج3، ص: 137.

4. كثرة المدارس للقرآن واستظهاره وإدامة النظر فيه

وهي صورة من صور الرغبة في تفهم القرآن، والوقوف على حروفه وحدوده، واستنباط حكمه وأسراره، وقيمه ومعانيه، وهذا ما حدث عليه النبي ﷺ ورغب فيه بقوله: "ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسون فيما بينهم إلا غشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده"⁽¹⁾، والمدارس لونها من ألوان اختزال الفكر، واستدعاء المعاني والاجتماع على مائدة قرآنية واحدة، وقد كان أصحاب النبي ﷺ يتدارسون القرآن، ويعيشون حوله بل به، وما أسئلة عمر رضي الله عنه لأصحابه عن معنى: (التخوف) في قوله: [أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ خَوْفٍ] [النحل: 47]⁽²⁾، إلا من ذلك.

واستظهار القرآن وإدامة النظر فيه واستحضاره يجعل العقل أقدر على تفهم قضاياها، والربط بين استظهار القرآن وإدامة النظر فيه: محاوره، ولعل لمحة من لمحات الإضاءة، وعلامة من علامات التوفيق، ساعة مراجعة أو استذكار رأي لا تكون إلا كصيد الخاطر، فهذا الكتاب لا تنتهي عجائبه، والاتصال الدائم به يعينه في تفسيره القرآن بالقرآن، ولا تسد المعاجم الموجودة مسد الحفظ أبداً. (وتلاوة القرآن بترتيل وتدبر بصورة دائمة توقف المفسر على كنوز لا حصر لها، فقد ينقدح في نفس القارئ مرة من المعاني في تفسير آية ما لم يكن يخطر باله من قبل، . . .)⁽³⁾.

5. صلاة الليل:

قيام الليل بالقرآن من أقوى الطرق الموصلة إلى فهمه ومعرفته، ولم لا؟ والليل باب الخشوع والخضوع، والأنس بعلام الغيوب، فالليل للصوت أسمع، وللقلب أخشع، وللعين أدمع، وإلى الستر أقرب، ويقول ابن حجر عن مدارس النبي ﷺ في كل ليلة من رمضان: المقصود من التلاوة الحضور والفهم؛ لأن الليل مظنة ذلك، لما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية⁽⁴⁾ وهناك من الشواهد ما يدل على اقتران قراءة القرآن بالليل فمنها قوله: [يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ] [آل عمران: 113].

(1) سبق تخريجه في ص: 15.

(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج 1، ص: 99.

(3) بحوث في أصول التفسير ومناهجه، لطفي الصباغ، ص: 31.

(4) فتح الباري، لابن حجر، ج 9، ص: 45.

6. فهم لوازم النص ومقاصده:

وهذا من أعظم أسباب تدبر القرآن الكريم وفهمه وتعقله، فإن القرآن كثيراً ما يذكر في القصص مواطن العبرة، ويترك للفؤاد والعقل مطلق التأمل والتدبر فيما لم يذكر، وقد يختم الآية بعللة لم تعلق بشيء، ليتأمل العقل، كما قال تعالى: [أَهَكُمُ النَّكَاتُ ۗ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۗ] [التكاثر: 1 - 2]. قال الشوكاني: "ولم يقل عن كذا، بل أطلقه؛ لأن الإطلاق أبلغ في الذم؛ لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، ولأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم، كما تقرّر في علم البيان"⁽¹⁾.

ويدخل في هذا السبب معرفة مقاصد سور القرآن وآياته، وهو باب عظيم لتدبر القرآن الكريم، وتطبيقاته في كتب التفسير كثيرة. وهذا السبب مؤثر جداً في التدبر والفهم، خاصة في القصص القرآني، والأمثال القرآنية.

الخاتمة:

وبعد فهذه رحلة الماتعة حول فهم القرآن الكريم، بين الضوابط التي تضبط العقل من الزيف والهوى، وتعصمه من الوقوع في مهاوي الفكر ومحظورات التفسير، وبين المزالق التي إن عرفها المفسر والقارئ ليتجنبها نجا من شرك التفسيرات الخاطئة، والمخطئة، وقد دارت هذه الدراسة المبسطة حول عدد من الضوابط، وركزت على ضرورة الفهم الصحيح للقرآن الذي هو الدستور الخالد للأمة، وخلصها، وسر نجاحها وعزتها، وهذا الفهم لا يقل أهمية عن عناية المسلمين بالشكل والأداء، بل إن الشكل والأداء خطوة إلى الفهم والإدراك، وقد خرجت الدراسة بـ:

- أن واقع المسلمين المر الذي يعيشونه سبب من أسبابه ضعف صلتهم بهذا الكتاب الكريم، ولا يقصد بذلك ضعف صلتهم به من ناحية حفظه واستظهاره، أو إتقانه وأدائه، ولكن يقصد ناحية الوصول إلى الفهم السليم، والإدراك القويم لمرامي هذا الكتاب الخالد.
- أن هناك ثمة عراقيل تعرقل عملية الفهم السليم، يجب تجاوزها.
- أن هناك أمور تعين على الفهم، يجب التشبث بها وعدم الحياد عنها قيد أنملة، إن رامت الأمة العزة والكرامة والرفقي، وأني على أمل أن يلتفت الناس عامة، والمسلمون خاصة إلى عقد صلة وثقى، بينهم وبين القرآن حتى يسودوا الدنيا، ويقودوا العباد إلى طريق الله عز وجل.

(1) فتح القدير، للشوكاني، ج 5، ص: 597.

توصيات البحث:

هناك بعض التوصيات من أهمها:

- على القائمين على دور التحفيظ العناية بجانب الفهم كما عنوا بجانب التلقين والتحفيظ، فإن الحفاظ على نصوص القرآن ليست غرضاً لذاتها، خاصة وقد ضمن الله بقاءه.
 - أن يعنى القائمون على مناهج الجامعات والمختصون في مناهج الدراسات القرآنية بجانب الفهم القرآني في برامجهم وخطتهم ومفردات مناهجهم.
 - دعوة ملحة في أن يكون هذا الباب الخصب من أبواب الدراسات القرآنية محطاً لأنظار العلماء وأقلام الباحثين في الدراسات العليا وغيرها.
 - أن يعنى العلماء والكتابتون بالجوانب التي تيسر الفهم القرآني وتعين عليه.
 - العناية بالتفاسير التي تعين على تبسيط المعنى وتحقيقها ونشرها بين المسلمين.
 - وضع برامج إذاعية وتلفازية وفضائية تعنى بتيسير الفهم لعامة المسلمين.
 - العناية بالأجيال من قبل العلماء العاملين، حتى يتسنى الفهم الصحيح للقرآن.
- هذا والله اسأل أن يرزقنا جميعاً العلم النافع والعمل الصالح. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى. (1997م). الموافقات (ط1)، (ج3). تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفا.
- ابن قيم الجوزية. (1991م). إعلام الموقعين عن رب العالمين (ط1)، (ج1). تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن قيم الجوزية. التبيان في أقسام القرآن. تحقيق: محمد الفقي. بيروت: دار المعرفة.
- ابن قيم الجوزية. (1410هـ). تفسير القرآن الكريم (ط1)، (ج3). تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
- ابن قيم الجوزية. (2004م). الفوائد (ط2). مكتبة مصطفى الباز.
- ابن قيم الجوزية. (1999م). الوابل الصيب من الكلم الطيب (ط3). تحقيق: سيد إبراهيم. القاهرة: دار الحديث.
- ابن حنبل، أحمد. (2003م). الزهد (ط1)، (ج1). تحقيق: يحيى بن محمد. دار ابن رجب.

- ابن قدامة، أحمد بن عبد الرحمن. (1978م). مختصر مناهج القاصدين. دمشق: مكتبة دار البيان.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1980م). مجموع الفتاوى (ج13). بيروت: دار الفكر.
- ابن تيمية. الفتاوى (ج3). ص: 137.
- ابن تيمية. الفتاوى (ج17). ص: 434.
- ابن تيمية. الفتاوى (ج20). ص: 123.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (2002م). مقدمة في أصول التفسير (ط1). تحقيق: إبراهيم بن محمد. دار المؤيد.
- ابن تيمية. المقدمة.
- ابن حجر، أحمد بن علي. (1997م). العجائب في بيان الأسباب (ط1)، (ج1). تحقيق: محمد عبد الحليم. الدمام: دار ابن الجوزي.
- ابن حجر، أحمد بن علي. (1379هـ). فتح الباري بشرح صحيح البخاري (ج11). بيروت: دار المعرفة.
- ابن حجر. الفتح. (ج13). ص: 271.
- ابن حجر. الفتح. (ج9). ص: 45.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (1999م). تفسير القرآن العظيم (ط2)، (ج3). تحقيق: سامي بن محمد سلامة. المدينة المنورة: دار طيبة للنشر والتوزيع.
- المحاسبي، الحارث بن أسد. (1398هـ). فهم القرآن ومعانيه (ط2). تحقيق: حسين القوتلي. بيروت: دار الكندي. دار الفكر.
- الرامهرمزي، الحسن بن عبد الرحمن. (1404هـ). المحدث الفاصل بين الراوي والواعي (ط3). تحقيق: د. محمد عجاج الخطيب. بيروت: دار الفكر.
- البغوي، الحسين بن مسعود. (1997م). معالم التنزيل في تفسير القرآن (ط4)، (ج3). حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش. المدينة المنورة: دار طيبة للنشر والتوزيع.
- السندي، سليمان بن عمر. (2002م). تدبر القرآن (ط2). مكة: دار المنتدي.
- الصالح، صبحي. (2000م). مباحث في علوم القرآن (ط4). بيروت: دار العلم للملايين.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. (1974م). الإتقان في علوم القرآن (ج3). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- السيوطي. الإتقان (ج1). ص: 34.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. الدر المنثور في التفسير بالمأثور (ج5). بيروت: دار الفكر.
- الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد. (1997م). الجواهر الحسان في تفسير القرآن (ط1)، (ج1). تحقيق: علي معوض - عادل عبد الموجود. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- السعدي، عبد الرحمن. (2000م). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ط1). مؤسسة الرسالة.
- السعدي. تيسير الكريم الرحمن. ص: 329.
- القشيري، عبد الكريم بن هوازن. لطائف الإشارات (ط3)، (ج1). تحقيق: إبراهيم البسيوني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- النكزاوي، عبد الله بن محمد. الإقتداء في معرفة الوقف والابتداء. تونس: المكتبة الوطنية التونسية.

- الهيثمي، علي بن أبي بكر. (1994م). مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ج9). تحقيق: حسام الدين القدسي. القاهرة: مكتبة القدسي.
- الهيثمي. مجمع الزوائد (ج7). ص: 168.
- الواحدي، علي بن أحمد. (1992م). أسباب نزول القرآن (ط2)، (ج1). تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان. الدمام: دار الإصلاح.
- الواحدي، علي بن أحمد. (1415 هـ). الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ط1). تحقيق: صفوان عدنان داوودي. دمشق، بيروت: دار القلم، الدار الشامية.
- حسنة، عمر عبيد. كيف نتعامل مع القرآن. حسنة: كيف نتعامل مع القرآن.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. (1995م). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (ج3). بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- الشنقيطي. أضواء البيان (ج7). ص: 257 - 258.
- إسماعيل، محمد بكر. (1991م). دراسات في علوم القرآن (ط1). دار المنار.
- القرطبي، محمد بن أحمد. (1964م). الجامع لأحكام القرآن (ط2)، (ج11). تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. القاهرة: دار الكتب المصرية.
- القرطبي. الجامع لأحكام القرآن (ج1).
- البخاري، محمد بن إسماعيل. (1987م). صحيح البخاري (ط2)، (ج3). تحقيق: مصطفى البغا. بيروت: دار ابن كثير.
- البخاري. الصحيح (ج1)، ص: 32.
- البخاري. الصحيح. (ج6)، ص: 23.
- البخاري. الصحيح. (ج9)، ص: 158.
- البخاري. الصحيح. (ج6)، ص: 192.
- الطبري، محمد بن جرير. (1405هـ). جامع البيان عن تأويل آي القرآن (ج1). بيروت: دار الفكر.
- الطبري. جامع البيان (ج15)، ص: 219.
- الزركشي، محمد بن عبد الله. (1990م). البرهان في علوم القرآن (ط1)، (ج1). تحقيق: د. يوسف المرعشلي وأخريين. بيروت: دار المعرفة.
- الزركشي. البرهان (ج1). ص: 202 - 203.
- الزركشي. البرهان (ج2). ص: 320.
- الشوكاني، محمد بن علي. (1414هـ). فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير (ط1)، (ج5). دمشق: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب.
- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد. (1984 هـ). التحرير والتنوير (ج1). تونس: الدار التونسية للنشر.
- ابن عاشور. التحرير والتنوير (ج1). ص: 18.
- ابن عاشور. التحرير والتنوير (ج1). ص: 19.
- ابن عاشور. التحرير والتنوير (ج1). ص: 84.

- ابن عاشور. التحرير والتنوير (ج1). ص: 31.
- الزرقاني، محمد عبد العظيم. مناهل العرفان في علوم القرآن (ط3)، (ج1). مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- الترمذي، محمد بن عيسى. (1975م). سنن الترمذي (ط2). تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج1، 2) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج3) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج4، 5). مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي. ج5، ص: 31.
- الترمذي. سنن الترمذي. ج5، ص: 199.
- أبي شهبة، محمد محمد. (1992م). المدخل لدراسة القرآن الكريم. دار الجيل ص: 125.
- أبو شهبة. المدخل. ص: 197.
- الغزالي، محمد. (1992م). كيف نتعامل مع القرآن (ط1). المعهد العالمي للفكر الإسلامي. ص: 71.
- الصباغ، محمد لطفي. (1988م). بحوث في أصول التفسير (ط1). المكتب الإسلامي.
- الصباغ. بحوث في أصول التفسير. ص: 31.
- الألوسي، محمود بن عبد الله. (1415هـ). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (ط1)، (ج7). تحقيق: علي عبد الباري عطية. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الزمخشري، محمود بن عمرو. (1407هـ). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (ط3)، (ج1). بيروت: دار الكتاب العربي.
- القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم (ج1). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي.
- مسلم. الصحيح (ج1). ص: 552.
- مسلم. الصحيح (ج4). ص: 2204.
- مسلم. الصحيح (ج4). ص: 2274.
- مسلم. الصحيح (ج1). ص: 551.
- النووي، يحيى بن شرف. (1420هـ). التبيين في آداب حملة القرآن (ط1). دار القاسم.
- عبد البر، يوسف بن عبد الله. (1994م). بيان العلم وفضله (ط1)، (ج1). تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. السعودية: دار ابن الجوزي.

The Correct Understanding of the Quran between Systematic Controls and Deadly Pitfalls

Saleh Sewod Al-Sewod

University of Hail - Faculty of Education

Ha'il - Saudi Arabia

Abstract:

Title: The correct understanding of the Qur'an between controls and deadly pitfalls. **The goal:** trying to reach a precise understanding of the Qur'an and applying it in practice.

Method: Descriptive Inductive Analytical. **The most important results:** the keen interest of the Holy Qur'an in talking about human habits, the customs (sunan) and the laws that govern their behavior, a thorough understanding of the Qur'an's treatment of the subject, and the accurate application of this understanding in life. **The most important recommendations:** applying Sunnah, benefiting from it, dealing with it properly to avoid pitfalls, and calling scholars of Islam to give more attention to this fertile section of the Quranic studies.

Keywords: concept, relationship, application, approach, Quran.